سلسلة في ظلال السيرة

الحديث الأول

إيواء الله لنبيّه في صغره



الدكتور الشيخ
سالم بن عبدالغني الرافعي

الحديث الأول

إيواء الله لنبيّه في صغره


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة في ظلال السيرة

الحديث الأول

إيواء الله لنبيّه في صغره

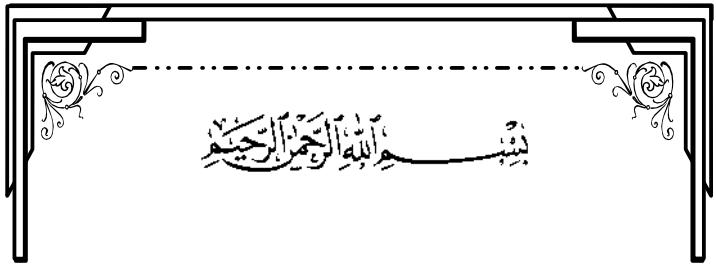
الدكتور
الشيخ سالم بن عبدالغني الرافعي

دار ابن حزم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

تم طبع هذه الرسالة على نفقة
أبناء الحاج بهاء الجمل رحمه الله تعالى
صدقة عن روح أبيهم بهاء الدين الجمل
وأخيهم فؤاد بهاء الجمل رحمهما الله تعالى



المقدّمة

اللَّهمَّ إنّا نحمدك حمداً يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبدالله صلوات ربي وسلامه عليه، وبعد. .

فإنَّ السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحاً يفهمه أهل عصر، قد يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح

للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسباً لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبيّ ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثراً في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

وبعد أن يسّر الله لي شرح جملة من الأحاديث الشريفة التي تتناول مواضيع متنوّعة يحتاجها الناس في حياتهم، رأيت أن أنحو هذا النحو في سيرة رسول الله ﷺ، فأقوم بشرح السيرة النبوية المطهرة من خلال شرح الأحاديث الشريفة المتعلقة بها بعون الله تعالى.

ثم رأيت نشر هذه الخُطب في رسائل صغيرة عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها «**في ظلال السّيرة**».

واللَّهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه الدكتور

الشيخ سالم بن عبدالغني الرافعي

في طرابلس ـ لبنان

بتاريخ ١٠/٠١/ ١٤٣٦هـ الموافق له ٢٠١٥/٠٨/١٦م

متن الحديث

عن نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك. قال: «**أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام. واستُرضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا في بَهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب مملوء ثلجاً، فأضجعاني، فشقّا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقّاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه ردّاه كما كان. ثم قال أحدهما لصاحبه: زِنه بعشرة من أمته، فوزنني بعشرة فوزنتُهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمّته لوزنهم**»[1].

(١) أخرجه الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/٢٧٥) من طريق خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ وقال: وهذا إسناد جيد قوي، وصحّحه الألباني في السلسلة برقم١٥٤٥.

شرح الحديث

بعض الصحابة ﷺ سألوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، فما المراد بهذا السؤال؟ وردت روايةٌ عند الإمام أحمد بيّنت مرادهم بهذا السؤال، كما حدّدت اسم أحد السائلين. فروى الإمام أحمد عن أبي أمامة ﷺ قال: «يا نبيّ الله ما كان أول بَدْء أمرك؟ قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمّي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام»[1]. أي: سأله أبو أمامة ﷺ عن أول بَدْء أمره كنبيّ مرسل، وكيف اشتُهر ذكر نبوّته بين الناس؟ فبيّن ﷺ أنّ أوّل من نوّه بذكره وشهَرَه في الناس هو نبيّ الله إبراهيم ﷺ. ثم لم يزل ذكره في الناس يعلو وينتشر حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل، وهو

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٦٢)، وحسّن إسناده الألباني في الصحيحة برقم ١٥٤٦.

عيسى ابن مريم عليه السلام. ثم زاد في إشهار أمره تلك الرؤيا الصادقة التي رأتها أمّه حين حملت به، والتي تدلّ على نبوّته وتوطئ لظهوره، فقَصّتها أمّه على قومها فشاعت فيهم واشتهرت بينهم. فهذا كان بدء ذكره في الأرض، وأما في الملأ الأعلى فقد كان أمره مشهوراً معلوماً من قبل خلق آدم عليه السلام، كما روى الترمذي عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ؟ قَالَ: وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»(١).

قال: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**» أي أنا استجابة الله تعالى لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام، حين كان يبني الكعبة المشرّفة هو وابنُه إسماعيل عليه السلام، فدَعَوا بهذا الدعاء قالا: ﴿...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾(٢).

فإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سألا الله تعالى

---

(١) أخرجه الترمذي برقم ٣٦٠٩ وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وصحّحه الألباني في صحيح الترمذي برقم ٢٨٥٦.

(٢) البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩.

أن يبعث في ذرّيتهما رسولاً، أي أن يبعث في العرب رسولاً، لأن العرب هم من ذرّية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بخلاف بني إسرائيل، فإنهم من ذرّية يعقوب ـ الذي هو إسرائيل ـ ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[1]، والأمّيون وصف أطلق على العرب لأن أغلبهم كانوا لا يحسنون القراءة والكتابة. وبَعْث النبيّ في العرب لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[2]، كما أن قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾»[3]، لا ينفي إنذار سائر العرب، إلا أنه دلّ على معنى البدء بإنذارهم قبل غيرهم. وأما دعوتهما أن يكون هذا النبيّ من العرب بقولهما ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ فمن أجل أن يكون أمر الإيمان قريباً منهم، فإن نشأته بينهم، ومعرفة سيرته قبل الرسالة وشهادتهم له بالصدق والأمانة، فكل ذلك يحمل المُنصفين منهم على المبادرة إلى تصديقه فيما يبلّغه عن

---

(١) الجمعة: ٢.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

(٣) الشعراء: ٢١٤.

ربه. ولقد حقّق الله تعالى دعوة هذين النبيّين الكريمَين، فبعث في ذرّيتهما رسولاً من العرب، وهو محمد ﷺ، وأرسله إلى الناس كافّة بشيراً ونذيراً، فكان محمد ﷺ هو ذلك النبيّ الذي استجاب الله به دعوةَ إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. وأما أنّ الدعوة في الحديث إنما نسبت لإبراهيم عليه السلام وحده، بقوله: «**دعوة أبي إبراهيم**»، فلأنه هو الأصل، إذ هو الذي ابتدأ بالدعوة، وأما إسماعيل فلم يزِد على أن أمّن على دعوة أبيه إبراهيم عليهما السلام.

«**وبشرى عيسى**» أي أن نبيّ الله عيسى عليه السلام قد بَشَّر قومه بالنبيّ محمّد ﷺ، كما أخبر الله عنه في القرآن، ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[1]. فعيسى عليه السلام هو آخر نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، وقد بَشَّر قومه بنبيٍّ يأتي من بعده اسمه أحمد، فكان نبيّنا محمد ﷺ هو ذلك النبيّ المبشّر به من قبل عيسى عليه السلام، وأحمد هو أحد أسمائه، فقد كان له ﷺ عدة أسماء. فبنو إسرائيل عرفت ببعثة محمد ﷺ قبل أن يُخلق، واشتُهر عندهم ببعض أسمائه وصفاته.

---

(١) الصف: ٦.

والاقتصار في الحديث على ذكر هذين النبيّين لا يلزم منه أن سائر الأنبياء لم يسمعوا به أو يعرفوه، بل كان ذكره ﷺ معروفاً لديهم، كما قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[1]، قالا: ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بَعَث محمدًا وهو حَيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه، وأمَرَه أن يأخذ الميثاق على أمّته: لئن بُعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه[2]. غير أنه نصّ على ذكر إبراهيم عليه السلام، لأنه كان هو المبتدئ بدعاء الله تعالى بإرسال محمد ﷺ، وكان سؤال الصحابة عن بَدْء أمره. وأما ذكر عيسى عليه السلام، فلأنه كان آخر الأنبياء الذين بشروا ببعثته، إذ لم يبعث بين عيسى ومحمّد عليهما الصلاة والسلام أي نبيّ، والبشارة الأخيرة تكون أعلق بأذهان الناس وذاكرتهم من سابقاتها، والله تعالى أعلم.

---

(١) آل عمران: ٨١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٦٧/٢) وتفسير الطبري (٥٥٥/٦).

«**ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام**»، أي: أنَّ آمنة بنت وهب وهي أمّ النبيّ ﷺ رأت في منامها، لما كانت حاملاً بالنبيّ ﷺ، أنه سيخرج منها نور يضيء الآفاق حتى تتراءى به لشدّة وهجه وامتداده قصور الشام. وتأويل هذه الرؤيا: أنَّ آمنة سوف تلد صبياً يملأ نورُه الآفاق حتى يصل مداه إلى بلاد الشام وما بعدها. فكان محمّد ﷺ هو ذلك المولود الذي تحقّقت به رؤيا آمنة، وملأ نور نبوّته وهداه الآفاق كلها.

ولكن ما السرّ في تخصيص الشام بظهور نوره مع أنَّ نوره عمّ الجزيرة العربية وسائر الآفاق؟

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في الصحيحين: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»[1]. وفي صحيح البخاري:

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٤٤٢ ومسلم برقم ٥٠٥٩ من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«وهم بالشام»[1].

وورد في روايةٍ عند ابن إسحاق: «قَالَتْ (آمنة): رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ أَنَّهُ خَرَجَ مِنّي نُورٌ أَضَاءَ لِي قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشّام»، قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وفيه بشارة لأهل محلّتنا أرض بصرى، وأنها أول بقعة من أرض الشام خلص إليها نور النبوّة ولله الحمد والمنّة. ولهذا كانت أول مدينة فُتحت من أرض الشام، وكان فتحها صلحاً في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

واستُرضعت في بني سعد بن بكر:

بعد أن بيّن النبيّ ﷺ المراحل التي سطع فيها ذكر نبوّته قبل ولادته، ابتداءً من دعوة نبيّ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومروراً ببشارة نبيّ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ به، وانتهاءً برؤيا أمّه حين حملت به، شرع ﷺ في بيان أولى تباشير النبوّة بعد ولادته، إذ بدأت هذه التباشير في طفولته.

وكان من عادة قريش أن تدفع بأطفالها في سنّ الرّضاعة إلى مرضعات من البادية، وذلك لينشأ الطفل في البادية، فينعم بهوائها الصحّي وسكونها الرائع وفصاحة

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٤٤).

(٢) صحيح السيرة النبوية (١/٥٣).

لسانها فيتلقن الطفل اللغة العربية الفصحى في مهده.

ونبيّنا عليه الصلاة والسلام لما وضعته أمّه كان والده قد تُوفّي وهو حمْل، فتولى كِفالتَهُ جَدُّهُ عبدالمطلب. فقامت أمّه بإرضاعه ثلاثة أيام، وكذا فازت ثويبة مولاة أبي لهب بإرضاعه عدة أيام، قبل أن يعهد جدّه عبدالمطلب بإرضاعه إلى حليمة السّعدية لتجعله في قبيلتها بالبادية.

ونترك حليمة السعدية لتروي لنا قصة إرضاعها لنبيّنا عليه الصلاة والسلام.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَحَدّثَنِي جَهْمُ بْنُ أَبِي جَهْمٍ مَوْلَى الْحَارِثِ بْنِ حَاطِبٍ الْجُمَحِيّ، عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، أَوْ عَمّنْ حَدّثَهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ حَلِيمَةُ بِنْتُ أَبِي ذُؤَيْبٍ السّعْدِيّةُ، أُمّ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الّتِي أَرْضَعَتْهُ، تُحَدّثُ أَنّهَا خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِهَا مَعَ زَوْجِهَا، وَابْنٍ لَهَا صَغِيرٍ تُرْضِعُهُ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، تَلْتَمِسُ الرّضَعَاءَ، قَالَتْ: وَذَلِك فِي سَنَةٍ شَهْبَاءَ[1] لَمْ تُبْقِ لَنَا شَيْئًا. قَالَتْ: فَخَرَجتُ عَلَى أَتَانٍ[2]

(١) سنة شهباء: أي مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

(٢) الأتان: أنثى الحمار.

لِي قَمْرَاءَ[1] مَعَنَا شَارِفٌ لَنَا[2]، وَاَللّهِ مَا تَبِضّ بِقَطْرَةٍ[3]، وَمَا نَنَامُ لَيْلَنَا أَجْمَعَ مِنْ صَبِيّنَا الّذِي مَعَنَا، مِنْ بُكَائِهِ مِن الْجوعِ. مَا فِي ثَدْيَيّ مَا يُغْنِيهِ وَمَا فِي شَارِفِنَا مَا يُغَذّيهِ، وَلَكِنّا كُنّا نَرْجُو الْغَيْثَ وَالْفَرَجَ. فَخَرَجْتُ عَلَى أَتَانِي تِلْكَ، فَلَقَدْ أَذمّت بِالرّكْبِ[4] حَتّى شَقّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ضَعْفًا وَعَجَفًا. حَتّى قَدِمْنَا مَكّةَ نَلْتَمِسُ الرّضَعَاءَ، فَمَا مِنّا امْرَأَةٌ إلّا وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فتأباه إذا قِيلَ لَهَا إنّهُ يَتِيمٌ. وَذَلِك أَنّا إنّمَا كُنّا نَرْجُو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصّبِيّ، فَكُنّا نَقُولُ: يَتِيمٌ، وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمّهُ وَجَدّهُ، فَكُنّا نَكْرَهُهُ لِذَلِك، فَمَا بَقِيَت امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِي إلّا أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي. فَلَمّا أَجْمَعْنَا الِانْطِلَاقَ، قُلْتُ لِصَاحِبِي: وَاَللّهِ إنّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاَللّهِ لَأَذْهَبَنّ إلَى ذَلِكَ الْيَتِيم فَلَآخُذَنّهُ. قَالَ: لَا عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَى اللّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً.

---

(١) قمراء: القُمْرة لون البياض إلى الحمرة.

(٢) الشارف: الناقة المسنّة.

(٣) تبضّ: لا ترشح قطرة لبن.

(٤) أَذَمّت بِالرّكْبِ: إذَا أَبْطَأَت عليهم حَتّى حَبَسَتْهُمْ، مِن الْبِئْرِ الذّمّةِ وَهِيَ الْقَلِيلَةُ الْمَاءِ.

قَالَتْ: فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فَأَخَذْته، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إِلّا أَنّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ. قَالَتْ: فَلَمّا أَخَذْتُهُ رَجَعْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي، فَلَمّا وَضَعْته فِي حِجْرِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبَ حَتّى رَوِيَ، وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتّى رَوِيَ، ثُمّ نَامَا، وَمَا كُنّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفِنَا تِلْك، فَإِذَا إِنّهَا لَحَافِلٌ[1]، فَحَلَبَ مِنْهَا مَا شَرِبَ وَشَرِبْتُ مَعَهُ حَتّى انْتَهَيْنَا رِيًّا وَشِبَعاً، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ. قَالَتْ: يَقُولُ صَاحِبِي حِينَ أَصْبَحْنَا: تَعَلمِي وَاَللّهِ يَا حَلِيمَةُ لَقَدْ أَخَذْت نَسَمَةً مُبَارَكَةً[2]. قَالَتْ: فَقُلْت: وَاَللّهِ إِنّي لَأَرْجُو ذَلِكَ. قَالَتْ: ثُمّ خَرَجْنَا وَرَكِبْتُ أَتَانِي، وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا مَعِي، فَوَاَللّهِ لَقَطَعَتْ بِالرّكْبِ[3] مَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا شيء من حُمُرهم حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذُؤَيْبٍ، وَيْحَك ارْبَعِي عَلَيْنَا، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانَك الّتِي كُنْت خَرَجْت عَلَيْهَا؟ فَأَقُولُ لَهُنّ: بَلَى وَاَللّهِ إِنّهَا لَهِيَ هِيَ، فَيَقُلْنَ: وَاَللّهِ إِنّ لَهَا لَشَأْنًا. قَالَتْ: ثُمّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلَادِ بَنِي سَعْدٍ، وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ

---

(١) حافل: كثير اللبن.

(٢) نسمة: نفس.

(٣) قطعت الركب: سبقت الركب.

اللّهِ أَجْدَبَ مِنْهَا. فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبّنًا[1]، فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ وَمَا يَحْلُبُ إِنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ وَلَا يَجِدُهَا فِي ضَرْعٍ. حَتّى كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُعْيَانِهِمْ: وَيْلَكُم اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ، فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وَتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لُبّنًا. فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرّفُ مِن اللّهِ الزّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ. وَكَانَ يَشِبّ شَبَابًا لَا يَشِبّهُ الْغِلْمَانُ، فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتّى كَانَ غُلَامًا جَفْرًا. قَالَتْ: فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمّهِ وَنَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَى مُكْثِهِ فِينَا، لِمَا كُنّا نَرَى مِنْ بَرَكَتِهِ. فَكَلّمْنَا أُمّهُ وَقُلْتُ لَهَا: لَوْ تَرَكْت بُنَيّ عِنْدِي حَتّى يَغْلُظَ فَإِنّي أَخْشَى عَلَيْهِ وَبَاء مَكّةَ[2].

قَالَتْ: فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتّى رَدّتْهُ مَعَنَا. قَالَتْ: فَرَجَعْنَا بِهِ، فَوَاَللّهِ إنّهُ بَعْدَ مَقْدِمِنَا بِأَشْهُر مَعَ أَخِيهِ لَفِي بَهْمٍ لَنَا[3] خَلْفَ بُيُوتِنَا، إِذْ أَتَانَا أَخُوهُ يَشْتَدّ، فَقَالَ لِي وَلِأَبِيهِ: ذَاكَ

(١) لبّناً: كثيرات اللبن.
(٢) الوباء: المرض.
(٣) البهم: صغار الضأن والماعز.

أَخِي الْقُرَشِيّ قَدْ أَخَذَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ فَأَضْجَعَاهُ فَشَقّا بَطْنَهُ فَهُمَا يَسُوطَانِهِ. قَالَتْ: فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوهُ نَحْوَهُ فَوَجَدْنَاهُ قَائِمًا مُنْتَقَعاً وَجْهُهُ[1]. قَالَتْ: فَالْتَزَمْتُه وَالْتَزَمَهُ أَبُوهُ، فَقُلْنَا لَهُ: مَا لَك يَا بُنَيّ؟ قَالَ: جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ فَأَضْجَعَانِي وَشَقّا بَطْنِي، فَالْتَمسَا شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ. قَالَتْ: فَرَجَعْنَا إِلَى خِبَائِنَا.

قَالَتْ: وَقَالَ لِي أَبُوهُ: يَا حَلِيمَةُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْغُلَامُ قَدْ أُصِيبَ، فَأَلْحِقِيهِ بِأَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ بِهِ. قَالَتْ: فَاحْتَمَلْنَاهُ فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمّهِ، فَقَالَتْ: مَا أَقْدَمَك بِهِ يَا ظِئْرُ[2]، وَقَدْ كُنْتِ حَرِيصَةً عَلَيْهِ وَعَلَى مُكْثِهِ عِنْدَك؟ قَالَتْ: فَقُلْت: قَدْ بَلَغَ اللّهُ بِابْنِي وَقَضَيْتُ الّذِي عَلَيّ، وَتَخَوّفْت الْأَحْدَاثَ عَلَيْهِ، فَأَدّيْتُه إِلَيْك كَمَا تُحِبّينَ. قَالَتْ: مَا هَذَا شَأْنُك، فَاصْدُقِينِي خَبَرَك. قَالَتْ: فَلَمْ تَدَعْنِي حَتّى أَخْبَرْتُهَا. قَالَتْ: أَفَتَخَوّفْتِ عَلَيْهِ الشّيْطَانَ؟ قَالَتْ: قُلْت: نَعَمْ. قَالَتْ: كَلّا وَاَللّهِ مَا

---

(١) امتقع لونه: تغيّر.

(٢) الظئر: المرضع.

لِلشّيْطَانِ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ، وَإِنّ لِبُنَيّ لَشَأْنًا، أَفَلَا أُخْبِرُكِ خَبَرَهُ؟ قَالَتْ: قُلْت: بَلَى. قَالَتْ: رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ أَنّهُ خَرَجَ مِنّي نُورٌ أَضَاءَ لِي قُصُورَ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشّامِ، ثُمّ حَمَلْتُ بِهِ، فَوَاَللّهِ مَا رَأَيْت مِنْ حَمْلٍ قَطّ كَانَ أَخَفّ وَلَا أَيْسَرَ مِنْهُ، وَوَقَعَ حِينَ وَلَدْتُه وَإِنّهُ لَوَاضِعٌ يَدَيْهِ بِالْأَرْضِ رَافِعٌ رَأْسَهُ إلَى السّمَاءِ، دَعِيهِ عَنْك وَانْطَلِقِي رَاشِدَةَ[1].

فهذه هي قصة إرضاعه كما روتها حليمة نفسها، وقد ذكرت فيها حادثة شقّ صدره وهو طفل صغير، والتي كانت السبب في إرجاعها له إلى أمّه آمنة. وقد أكّد الحبيب ﷺ بعد أن بُعِثَ نبيًّا وقوع هذه الحادثة معه كما ذكرتها حليمة، وأخبر بها أصحابه، واعتبرها أولى تباشير النبوّة في حياته. فقال: «**فبينا أنا في بهْم[2] لنا، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، معهما طست من ذهب**

(١) سيرة ابن هشام (١/١٦٢)، وقال ابن كثير في السيرة النبوية (١/٢٢٨): وهذا الحديث قد روي من طرق أخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي.

(٢) البهم ـ بفتح الباء وإسكان الهاء ـ وهي الصغار من أولاد الغنم والمعز جميعاً، وقيل أولاد الضأن خاصة، والواحدة بهمة.

مملوء ثلجاً، فأضجعاني، فشقّا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقّاه فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه ردّاه كما كان» الحديث. وروى مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً[1]، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ. ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لأَمَهُ[2] ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ. وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ ـ يَعْنِي ظِئْرَهُ[3] ـ فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ. فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ[4]. قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ[5] فِي صَدْرِهِ[6].

فهذه الروايات أثبتت شقّ صدره ﷺ وهو طفل صغير في بادية بني سعد، كما تضافرت الروايات على تكرّر هذه الحادثة، وهي شقّ صدره، في ليلة المعراج. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: فهذا الشرح كان في حال

---

(١) العلقة: الدم الغليظ المنعقد.

(٢) لأمه: أي خاطه وضم بعضه إلى بعض.

(٣) الظئر: المرضع وهي هنا حليمة السعدية.

(٤) المنتقع: المتغيّر اللون.

(٥) المخيط: الإبرة.

(٦) أخرجه مسلم برقم ٤٣١.

صغره، وهو غير الشرح المذكور في ليلة المعراج[1].

وأما معنى هذه الحادثة، فقد عبّر عنها محمد رشيد رضا رحمه الله بقوله: والظاهر من حادثة شقّ الصدر أنها تمثيل لحفظ نفس النبيّ ﷺ وقلبه من حظ الشيطان من سائر بني آدم بالوسوسة والإغواء، فالمراد منها أن الله تعالى طهَّر نبيّه وصفيّه من كل ما لا يليق بمنصبه الأعلى من الشهوات والأهواء التي هي موضوع وسوسة الشيطان[2].

وقد بيّن النبيّ ﷺ أنَّ الله تعالى قد حصّن له نفسه الشريفة من وساوس الشيطان، فروى مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ. قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَال: وَإِيَّايَ، إِلاَّ أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلاَّ بِخَيْرٍ**»[3]. فالظاهر أنَّ عصمة النبيّ ﷺ من وساوس الجنّي القرين كانت نتيجة لحادثة شقّ صدره وأثراً من آثارها والله أعلم.

«**ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته،**

---

(١) فتح الباري لابن رجب (١٠٩/٢).

(٢) مجلة المنار (٢٧٦/٣٣) ببعض التصرف.

(٣) رواه مسلم برقم ٧٢٨٦.

فوزنني بعشرة فوزنتُهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بمائة فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بألف فوزنتهم، فقال: دعه عنك فلو وزنته بأمّته لوزنهم».

أي قال أحد الملكين للآخر: ضع النبيّ ﷺ في كفّة، وفي الكفّة الأخرى ضع عشرة من أمّته، فلما فعل رجحت الكفّة التي فيها النبيّ ﷺ. ثم تكرر الوزن مع مائة ثم مع ألف من أمّته، وفي كل مرة ترجح كفّة النبيّ ﷺ، فحينها قال أحد الملكين للآخر: لا تكمل الموازنة فإنك لو وضعت كل أمّته في كفّة ووضعته في كفّة، لرجحت كفّة النبيّ ﷺ عليهم.

والمراد من هذه الموازنة بيان فضل النبيّ ﷺ وعظم إيمانه بربه، فلو تجسّد الإيمان في صورة حسّية، ثم أجريت موازنة بين إيمان النبيّ ﷺ وإيمان جميع أمّته، لكان إيمانه ﷺ أعظم وأثقل في الميزان من إيمان جميع أمّته.

❍ فوائد الحديث:

في حديث الباب وما تلاه من أحاديث توضّحه وتشرحه فوائد كثيرة، منها:

الفائدة الأولى: ترابط الأنبياء فيما بينهم:

فنبيّنا محمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ... ﴿٩﴾﴾ الآية[1]، أي ليس هو أوّل رسول أرسله الله تعالى إلى الناس، وإنما سبقه رسل كثيرون. وهؤلاء الرسل تربطه بهم صلات وثيقة رغم امتداد العصور واختلاف البلاد. فهم من بشّروا أممهم بخروجه وأوصوهم باتباعه، بل أصل خروجه كنبيّ إنما كان استجابة لدعوةٍ دعا بها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

فخروجه ﷺ مكمّل لخروجهم، وبه تُختتم تلك السلسلة الذهبية من صفوة الخلق الذين اختارهم الله تعالى لحمل رسالته وأمرهم بتبليغها للناس. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾[2].

والرسالة التي حملها الأنبياء وأمروا بتبليغها للناس هي واحدة في جوهرها ومضمونها وأصول شرائعها، وإن اختلفت في فروع شرائعها وسننها وفق ما تقتضيه أحوال كل عصر واستعداد الناس فيه. لذلك كان كل نبيٍّ

---

(١) الأحقاف: ٩.

(٢) الحج: ٧٥.

يوصي أمّته باتباع من يعقبه من الأنبياء فيهم، لأنهم يصدرون عن مشكاة واحدة، ويحملون رسالة واحدة في جوهرها ومضمونها، وهي توحيد الله ﷻ. قال تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[1].

فالدعوة إلى توحيد الله ﷻ هي جوهر الرسالات التي لم يختلف عليها أحد من الأنبياء والمرسلين. وكذلك الدعوة إلى الإيمان بعموم الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله ﷻ للناس، والإيمان بالكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله، والإيمان بالملائكة، والإيمان باليوم الآخر وما احتواه من إيمان بالبعث بعد الموت ليُجزى الناس فيه بأعمالهم ثم يصيرون إما إلى جنّة وإما إلى نار، وكذلك الدعوة إلى أصول الشرائع من صلاة وصوم وصدقة ونسك، والدعوة إلى الخير والمثل العليا ومكارم الأخلاق، كل هذا مما اتفقت عليه جميع الرسالات فيما بينها.

روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي**

---

(١) الأنبياء: ٢٥.

الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[1].

فقوله عليه الصلاة والسلام «الأنبياء إخوة لعَلّات»، والعَلّات هن: الضرائر، وأصله أن من تزوّج امرأة ثم تزوّج أخرى كأنّه علّ منها، والعَلَل الشّرب بعد الشّرب، والأخوة لعَلّات هم: الأخوة من أب واحد ومن أمهات مختلفة، فشبّه النبيّ ﷺ الأنبياء بالإخوة الذين يجمعهم أب واحد وإن اختلفت أمهاتهم، وكذلك الأنبياء أصل دينهم واحد، وهو: التوحيد، وإن اختلفت فروع الشرائع فيما بينهم[2].

وكما ترابَط الأنبياء فيما بينهم بالدعوة إلى التوحيد وأصول الدين، كذلك هم مترابطون فيما بينهم بأواصر من المحبّة والتراحم والتناصر.

فكان رسولنا ﷺ إذا آذاه بعض الأعراب، تذكّر ما عاناه أخوه موسى عليه السلام من الأذى فيترحّم عليه. روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُنَاسًا فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ

(١) رواه البخاري برقم ٣٤٤٣.

(٢) انظر فتح الباري لابن حجر (٤٨٩/٦).

ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ، فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ. قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ. فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، رَحِمَ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[1].

كذلك ندب النبيّ ﷺ أمّته إلى قتل الوزغ[2]، فقال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً فِي أَوَّلِ ضَرْبَةٍ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً، وَمَنْ قَتَلَهَا فِي الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً لِدُونِ الأُولَى، وَإِنْ قَتَلَهَا فِي الضَّرْبَةِ الثَّالِثَةِ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً لِدُونِ الثَّانِيَةِ**»[3]. وإذا سألنا عن السبب في الندب إلى قتل هذه الزاحفة الصغيرة، تبيّن لنا سرّ هو غاية في الرّوعة. فقد روى أحمد في مسنده عَنْ نَافِعٍ: أَنَّ امْرَأَةً دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ، فَإِذَا رُمْحٌ مَنْصُوبٌ، فَقَالَتْ: مَا هَذَا الرُّمْحُ؟ فَقَالَتْ: نَقْتُلُ بِهِ الأَوْزَاغَ. ثُمَّ حَدَّثَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُلْقِي فِي النَّارِ جَعَلَتِ الدَّوَابُّ كُلُّهَا تُطْفِئُ عَنْهُ إِلاَّ الْوَزَغَ فَإِنَّهُ جَعَلَ**

---

(١) رواه البخاري برقم ٣١٥٠، ومسلم برقم ٢٤٩٤.

(٢) الوزغ جمع وزغة، وهي التي يطلق عليها اسم سام أبرص، وفي العاميّة عندنا يطلق عليها اسم أبو بريص.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة برقم ٥٩٨٣.

يَنْفُخُهَا عَلَيْهِ»[1].

فهذه وزغة حقيرة في غابر التاريخ قد آذت نبيّ الله إبراهيم الخليل عليه السلام، إذ جعلت تنفخ في النار التي ألقي فيها إبراهيم عليه السلام لتزيد في توقّدها، فندب نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أمَّته بعد آلاف السنين إلى قتل بنات جنسها انتصاراً لأخيه إبراهيم عليه السلام. فأي ترابط بين الإخوة أوثق من هذا الترابط وأمتن!

وقد شبّه النبيّ صلى الله عليه وسلم ترابط الأنبياء فيما بينهم، وتناسق دعوتهم وتكاملها ببيت شُيّد أساسه منذ فجر التاريخ من لدن آدم ونوح وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ولم يزل يرتفع بناؤه لَبِنة بعد لَبِنة ببعثة الأنبياء واحداً بعد الآخر حتى اكتمل بنيانه ببعثة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام فصار آية في الحسن والجمال.

روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاس يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ،**

---

(١) رواه أحمد برقم ٢٥٨٦٩، وقال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ»[1].

الفائدة الثانية: عظم بركة النبيّ ﷺ:

في حديث حليمة السّعدية ظهرت بركة النبيّ ﷺ في صُوَر شتى.

الأولى: في إدرار ثدييها بالحليب حتى ارتوى النبيّ ﷺ وأخوه في الرّضاعة بعد أن كان حليبها لا يكفي صبيّها لوحده.

الثانية: في كثرة الحليب في ناقتها بعدما أصابها من هُزال شديد.

الثالثة: في النشاط الذي دبّ في أتانها بعد ضعفها وإعيائها.

الرابعة: في الخَصْب الذي ملأ أرضها في بني سعد بعدما كانت مجدبة مقفرة.

الخامسة: في تدفّق الحليب في ضروع غنمها دون سائر الغنم.

فهذا الخير العظيم الذي أفاضه الله تعالى على حليمة وأهل بيتها وملأ به حياتهم دفعهم بلا شك إلى حبّ محمد ﷺ ورعايته والإحسان إليه، وكل هذا داخل في إيواء

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٣٤٢، ومسلم برقم ٦١٠١.

الله تعالى لنبيّه منذ صغره، وقد عرّفه الله تعالى هذه النعمة بعد أن بعث نبيًّا بقوله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾[1].

وكما حلّت بركة النبيّ ﷺ على حليمة وقومها، وهو طفل صغير، كذلك حلّت بركته عليها وعلى قومها وهو نبيّ مبعوث.

أما حليمة السّعدية، فقد وردت عدّة أحاديث تُصرّح بقدومها على رسول الله ﷺ وهو بالجعرّانة بعد غزوة حنين وإكرامه لها. منها: ما رواه أبو داود عن أَبي الطُّفَيْلِ قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِي ﷺ يَقْسِمُ لَحْمًا بِالْجِعِرَّانَةِ[2] - قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ أَحْمِلُ عَظْمَ الْجَزُورِ[3] - إِذْ أَقْبَلَتِ امْرَأَةٌ حَتَّى دَنَتْ إِلَى النَّبِي ﷺ فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: مَنْ هِيَ؟ فَقَالُوا: هَذِهِ أُمُّهُ الَّتِي أَرْضَعَتْهُ»[4]. والأحاديث الواردة وإن كانت لا تخلو من

---

(١) الضحى: ٦.

(٢) الجعرانة هي: موضع مياه بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب إذ تبعد عنها حوالي ٢٩ كلم، وقد نزلها النبيّ ﷺ لما قسم غنائم هوازن مرجعه من غزوة حنين، وأحرم منها ﷺ وله فيها مسجد.

(٣) جَزَرَ الناقة يَجْزُرها جَزْراً، أي: نحرها وقطعها، والجَزُورُ: الناقة المَجْزُورَةُ.

(٤) أخرجه أبو داود برقم ٥١٤٦، وابن حبان في صحيحه برقم ٤٢٣٢، وضعّف إسناده الألباني في ضعيف أبي داود برقم ٤٤٧٨.

مقال إلا أنها تدلّ بمجموعها على أن لهذه القصة أصلاً، حتى عدّ كثير من العلماء حليمة السّعدية في الصحابة، منهم: ابن أبي خيثمة في تاريخه وابن عبدالبر في الاستيعاب وابن الجوزي في «الحداء» والمنذري في مختصر سنن أبي داود وابن حجر في الإصابة وغيرهم. وألف الحافظ مغلطاي[1] فيها جزءً حافلاً سمّاه «التحفة الجسيمة في إثبات إسلام حليمة» وارتضاه علماء عصره[2].

وأما زوجها الحارث بن عبد العزى، وهو أبو رسول الله ﷺ من الرّضاعة، فهو أيضاً مختلف في إسلامه. وكثير ممن ألّف في الصحابة لم يذكروه فيهم، إلا أن يونس بن بُكير ذكر إسلامه في روايته، فَقَالَ: حَدّثَنَا ابْنُ إسْحَاقَ قَالَ حَدّثَنِي وَالِدِي إسْحَاقُ بْنُ يَسَارٍ، عَنْ رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، قَالَ: قَدِمَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْعُزّى، أَبُو رَسُولِ اللّهِ ﷺ مِنَ الرّضَاعَةِ عَلَى رَسُولِ

---

(١) وهو مغلطاي بن قليج بن عبدالله البكجري، الحنفي التركي علاء الدين صاحب التصانيف (٦٩٠ ـ ٧٦٢هـ) من تصانيفه الكثيرة، ذيل على «تهذيب الكمال» للمزي، وله شرح على صحيح البخاري في نحو عشرين مجلداً وغير ذلك.

(٢) انظر مرويات غزوة حنين وحصار الطائف (٢٧١/١).

اللّهِ ﷺ بِمَكّةَ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: أَلَا تَسْمَعُ يَا حَارِ[1] مَا يَقُولُ ابْنُك هَذَا؟ فَقَالَ: وَمَا يقول؟ قَالُوا: يَزْعُمُ أَنّ اللّهَ يَبْعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَنّ لِلّهِ دَارَيْنِ يُعَذّبُ فِيهِمَا مَنْ عَصَاهُ وَيُكْرِمُ فِيهِمَا مَنْ أَطَاعَهُ، فَقَدْ شَتّتَ أَمْرَنَا، وَفَرّقَ جَمَاعَتَنَا. فَأَتَاهُ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيّ مَا لَك وَلِقَوْمِك يَشْكُونَك، وَيَزْعُمُونَ أَنّك تَقُولُ إنّ النّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ ثُمّ يَصِيرُونَ إلَى جَنّةٍ وَنَارٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: نَعَمْ أَنَا أَزْعُمُ ذَلِكَ، وَلَوْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَا أَبَتِ لَقَدْ أَخَذْت بِيَدِك، حَتّى أُعَرّفَك حَدِيثَك الْيَوْمَ. فَأَسْلَمَ الْحَارِثُ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسُنَ إسْلَامُهُ، وَكَانَ يَقُولُ حِينَ أَسْلَمَ: لَوْ قَدْ أَخَذَ ابْنِي بِيَدِي فَعَرّفَنِي مَا قَالَ لم يُرْسِلنِي إنْ شَاءَ اللّهُ حَتّى يُدْخِلَنِي الْجَنّةَ[2].

وقد عدّه ابن حجر في الصحابة، وأورد هذا الحديث في ترجمته ثم قال: «وعند ابن سعد حديث آخر مرسل صحيح الإسناد أن هذه القصة وقعت لولد

---

(١) يا حارِ: أي يا حارث، وتحذف الثاء من باب الترخيم.
(٢) الروض الأنف للسهيلي (١/٢٨٣).

الحارث. فأخرج من طريق يحيى بن أبي كثير عن إسحاق بن عبدالله قال: كان لرسول الله ﷺ أخ من الرضاعة، فقال للنبيّ ﷺ يعني بعد النبوّة: أترى أنه يكون بعث؟ فقال له النبيّ ﷺ: «**أما والذي نفسي بيده لآخذنّ بيدك يوم القيامة ولأعرفنّك**». قال: فلما آمن بعد النبيّ ﷺ كان يجلس فيبكي ويقول: «أنا أرجو أن يأخذ النبيّ ﷺ بيدي يوم القيامة». ثم قال ابن حجر: «ويحتمل أن يكون ذلك وقع للأب والابن، وقد سمّاه بعضهم عبدالله، وذكره في الصحابة، وكذا سمّاه ابن سعد لما ذكر أسماء أولاد حليمة»[1].

وأما ابنة حليمة، واسمها حذافة بنت الحارث السّعدية، وقد غلب عليها اسم الشيماء، فقد وردت فيها أيضاً عدة أحاديث تصرّح بقدومها على رسول الله ﷺ وهو بالجعرّانة بعد غزوة حنين وإكرامه لها[2]. منها: ما رواه البيهقي من حديث الحكم بن عبدالملك عن قتادة قال: لما كان يوم فتح هوازن جاءت جارية إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنا أختك أنا الشيماء بنت الحارث، فقال لها: إن تكوني صادقة فإن

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٥٨٣/١).

(٢)

بك مني أثراً لا يبلى. قال: فكشفت عن عضدها، فقالت: نعم يا رسول الله حملتك وأنت صغير فعضضتني هذه العضّة. قال: فبسط لها رسول الله ﷺ رداءه، ثم قال: «**سلي تعطي واشفعي تشفعي**»[1].

وقد أطبق العلماء الذين ألفوا في الصحابة وغيرهم على ذكر الشيماء في الصحابة، وعلى أنّها قدِمت على رسول الله ﷺ الجعرّانة فرحّب بها وأكرمها[2].

وأما قبيلة حليمة السّعدية، وأعني بهم هوازن، لأن بني سعد بن بكر هم بطن من قبيلة هوازن، فحليمة هي بنت أبي ذؤيب، واسمه عبدالله بن الحارث بن شِجْنة بن رِزام بن ناضرة بن سعد بن بكر بن هوازن، فقد نالوا أوفر قسط من بركته ﷺ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: والمقصود أنَّ بركته عليه الصلاة والسلام حلت على حليمة السّعدية وأهلها وهو صغير، ثم عادت على هوازن بكمالهم فواضله حين أسرهم بعد وقعتهم، وذلك بعد فتح مكة بشهر، فمتّوا إليه برضاعه، فأعتقهم وتحنّن عليهم وأحسن إليهم. ثم قال: وقال محمد بن إسحاق في وقعة هوازن: عن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٣/٥٦).
(٢) مرويات غزوة حنين وحصار الطائف (١/٢٦٧).

عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين، فلما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك، فامنن علينا منّ الله عليك.

وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله إن ما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، فلو أنا ملحنا ابن أبي شمر[1]، أو النعمان بن المنذر ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت خير المكفولين. ثم أنشد:

أُمْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ اللّهِ فِي كَرَمٍ
فَإِنّك الْمَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَدّخِرُ
أُمْنُنْ عَلَى بيضة قَدْ عَاقَهَا قَدَرٌ
مُمَزّقٌ شَمْلَهَا فِي دَهْرِهَا غِيَرُ
أبقت لنا الدهر هتافا على حزن
على قلوبهم الغماء والغمر
إن لم تداركها نعماء تنشرها
يا أرجح الناس حلما حين يختبر

(١) ملحنا يعني أرضعنا، وابن أبي شمر هو الحارث الغساني.

أُمْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْت تَرْضَعُهَا
إذْ فُوك يملؤه مِنْ مَحْضِهَا الدّرَرُ
أمْنُنْ على نسوة قد كنت ترضعها
وإذ يزينك ما تأتي وما تذر
لَا تَجْعَلَنّا كَمَنْ شَالَتْ نَعَامَتُهُ
وَاسْتَبْقِ مِنّا فَإِنّا مَعْشَرٌ زُهُرُ
إنّا لَنَشْكُرُ آلَاءً وَإِنْ قَدُمَتْ
وَعِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ مُدّخَرُ

ثم قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لله ولكم**». فقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لله ولرسوله ﷺ.

قال ابن كثير: وسيأتي أنه عليه الصلاة والسلام أطلق لهم الذرّية، وكانت ستة آلاف ما بين صبيّ وامرأة، وأعطاهم أنعاماً وأناسيّ كثيراً. حتى قال أبو الحسين بن فارس: فكان قيمة ما أطلق لهم يومئذ خمسمائة ألف ألف درهم.

فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته على من اتّبعه في الدار الآخرة[1].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/٢٣٤)، وصحيح السيرة النبوية للألباني (١/٢١).

وفي قول شاعر هوازن:

أمنن على نسوة قد كنت ترضعها
إذ فوك يملؤه من محضها الدرر

تصريح بوجود نسوة في الأسرى كان يرضع منهن الرسول ﷺ، وهذا ينطبق تماماً على حليمة السعدية، وهو دليل آخر على لقياها للنبيّ ﷺ في الجعرّانة.

وكما حلّت بركة النبيّ ﷺ على حليمة وقومها، كذلك حلّت بركته على البشرية كلها بعد بعثته نبيًّا. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1]. قال سيد طنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي وما أرسلناك أيها الرسول الكريم بهذا الدين الحنيف وهو دين الإسلام، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الإنس والجن. وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم في دينهم وفي دنياهم وفي آخرتهم متى اتبعوك، واستجابوا لما جئتهم به، وأطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنه. وفي الحديث الشريف: «**إنما أنا رحمة مهداة**»[2] فرسالته ﷺ رحمة في ذاتها، ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها، أما

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) رواه الدارمي والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم ٥٨٠٠.

من أعرض عنها فهو الذي ضيّع على نفسه فرصة الانتفاع[1].

إذاً كل من انتفع بما جاء به النبيّ ﷺ من الهدى فقد حلت عليه بركة النبيّ ﷺ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: كَمَا كَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِم النَّبِيُّ ﷺ فِي بَرَكَتِهِ لَمَّا آمَنُوا بِهِ وَأَطَاعُوهُ فَبِبَرَكَةِ ذَلِكَ حَصَلَ لَهُمْ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بَلْ كُلُّ مُؤْمِنٍ آمَنَ بِالرَّسُولِ وَأَطَاعَهُ حَصَلَ لَهُ مِنْ بَرَكَةِ الرَّسُولِ بِسَبَبِ إيمَانِهِ وَطَاعَتِهِ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ[2].

الفائدة الثالثة: التبرك بآثار الرسول ﷺ:

الحديث عن بركة النبيّ ﷺ يحملنا إلى التعريج على مسألة طال النزاع فيها، وهي: التبرك بآثار الرسول ﷺ في حياته وبعد مماته.

ومعلوم أنّ الله تعالى قد خصّ رسوله ﷺ بخصائص ميّزه بها عن سائر الناس، وعن سائر أمّته،

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي (٢٩٣٨/١).
(٢) مجموع الفتاوى (١١٣/١١).

حتى أنَّ علماء الإسلام قد ألفوا في خصائصه ﷺ كتباً ومجلدات. ومن خصائصه ﷺ كون جسده مباركاً، فجسد رسول الله ﷺ وما ينفصل عنه من شعر وعرق ونحو ذلك قد جعل الله تعالى فيه من البركة الشيء الكثير.

وقد ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم التبرّك بآثاره ﷺ في حياته وبعد وفاته.

فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا رَمَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجَمْرَةَ وَنَحَرَ نُسُكَهُ وَحَلَقَ، نَاوَلَ الْحَالِقَ شِقَّهُ الأَيْمَنَ فَحَلَقَهُ، ثُمَّ دَعَا أَبَا طَلْحَةَ الأَنْصَارِي فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ الشِّقَّ الأَيْسَرَ فَقَالَ: احْلِقْ، فَحَلَقَهُ فَأَعْطَاهُ أَبَا طَلْحَةَ فَقَالَ: اقْسِمْهُ بَيْنَ النَّاسِ»[1].

وهذه القصة جرت في حجّة الوداع، فبعد أن رمى النبيّ ﷺ الجمرة ونحر نسكه، أمر الحلاق فحلق رأسه، ودفع إلى أبي طلحة ـ وهو الأنصاري زوج أم سليم والدة أنس بن مالك ـ الشقّ الأيمن، ثم حلق الشقّ الآخر فأمره أن يقسّمه بين الناس، وورد في رواية أخرى «أنه قسم الأيمن فيمن يليه فوزّعه بين الناس

(١) رواه البخاري مختصراً برقم ١٧١ ومسلم بلفظه برقم ٣٢١٥.

الشعرة والشعرتين، وأعطى الأيسر أم سليم»، ولا تناقض في هذه الروايات، بل طريق الجمع بينها كما قال الحافظ ابن حجر: أنه ناول أبا طلحة كلًّا من الشّقين، فأما الأيمن فوزعه أبو طلحة بأمره، وأما الأيسر فأعطاه لأم سليم زوجته بأمره ﷺ أيضاً، قال: وزاد أحمد في رواية له «لتجعله في طيبها»[1].

ورواية أحمد التي أشار إليها الحافظ، رواها أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَحْلِقَ الْحَجَّامُ رَأْسَهُ أَخَذَ أَبُو طَلْحَةَ شَعَرَ أَحَدِ شِقَّي رَأْسِهِ بِيَدِهِ، فَأَخَذَ شَعَرَهُ فَجَاءَ بِهِ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ. قَالَ: فَكَانَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ تَدُوفُهُ[2] فِي طِيبِهَا»[3].

قال النووي رحمه الله مبيناً فوائد هذا الحديث «... ومنها: التبرك بشعره ﷺ، وجواز اقتنائه للتبرّك»[4].

---

(١) فتح الباري ابن حجر (١/٢٧٤).

(٢) تدوفه: أي تخلطه.

(٣) أخرجها أحمد برقم ١٣٨٥٦، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤) شرح النووي على مسلم (٩/٥٤).

وهذا التبرّك بشعر النبيّ ﷺ كان في حياته، وأما بعد وفاته، فقد قال عثمان بن عَبْدِاللَّهِ بْنِ مَوْهَبٍ: أَرْسَلَنِي أَهْلِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ، فجاءت بجُلجُل[1] مِنْ فِضَّةٍ فِيهِ شَعرٌ مِنْ شَعرِ النَّبِي ﷺ، وَكَانَ إِذَا أَصَابَ الإِنْسَانَ عَيْنٌ أَوْ شَيءٌ بَعَثَ إِلَيْهَا مِخْضَبَه[2]، فَاطَّلَعْتُ فِي الْجُلْجُلِ فَرَأَيْتُ شَعَرَاتٍ حُمْرًا»[3].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه وتعيده فيشربه صاحب الإناء أو يغتسل به استشفاءً بها فتحصل له بركتها»[4]. وعثمان بن عبدالله بن موهب هذا هو أحد التابعين، أي أن إرساله إلى أم سلمة كان بعد وفاة النبيّ ﷺ.

وروى بن السكن من طريق صفوان بن هبيرة عن

---

(١) الجلجل: هو شبه الجرس وقد تنزع منه الحصاة التي تتحرك، فيوضع فيه ما يحتاج إلى صيانته.

(٢) المخضب: هو الإناء الذي يغسل فيه الثياب من أي جنس كان، وقد يطلق على الإناء صغيراً أو كبيراً.

(٣) أخرجه البخاري برقم ٥٨٩٦ والحميدي في الجمع بين الصحيحين.

(٤) فتح الباري (١٠/٣٥٣).

أبيه قال: قال لي ثابت البناني: قال لي أنس بن مالك: هذه شعرة من شعر رسول الله ﷺ فضعها تحت لساني، قال: فوضعتها تحت لسانه فدُفن وهي تحت لسانه[1].

فقصة أنس هذه دلّت أنه تبرك بشعر النبيّ ﷺ بعد وفاة النبيّ ﷺ بزمن، لأن وفاة أنس كانت عام واحد وتسعين للهجرة، أي تبرّك بها بعد وفاة النبيّ ﷺ بثمانين سنة.

وروى مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِي ﷺ يَدْخُلُ بَيْتَ أُمِّ سُلَيْم فَيَنَامُ عَلَى فِرَاشِهَا وَلَيْسَتْ فِيهِ. قَالَ: فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَنَامَ عَلَى فِرَاشِهَا، فَأُتِيَتْ فَقِيلَ لَهَا: هَذَا النَّبِي ﷺ نَامَ فِي بَيْتِكِ عَلَى فِرَاشِكِ. قَالَ: فَجَاءَتْ وَقَدْ عَرِقَ وَاسْتَنْقَعَ عَرَقُهُ عَلَى قِطْعَةِ أَدِيمٍ عَلَى الْفِرَاشِ، فَفَتَحَتْ عَتِيدَتَهَا[2] فَجَعَلَتْ تُنَشِّفُ ذَلِكَ الْعَرَقَ فَتَعْصِرُهُ فِي قَوَارِيرِهَا. فَفَزِعَ النَّبِي ﷺ فَقَالَ: مَا تَصْنَعِينَ يَا أُمَّ سُلَيْم؟. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرْجُو بَرَكَتَهُ لِصِبْيَانِنَا. قَالَ: أَصَبْتِ[3].

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١/١٢٧).
(٢) العتيدة: هي ما تجعل فيه المرأة طيبها وما تعدّه من أمرها.
(٣) أخرجه مسلم برقم ٦٢٠٢.

وكما كانت أم سليم تخلط شعر النبيّ بطيبها، كذلك كانت تمزج عرقه الشريف بطيبها. روى أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ عَلَى أَمِّ سُلَيْم فَتَبْسُطُ لَهُ نِطْعاً[1] فَيَقِيلُ عَلَيْهِ، فَتَأْخُذُ مِنْ عَرَقِهِ فَتَجْعَلُهُ فِي طِيبِهَا وَتَبْسُطُ لَهُ الْخُمْرَةَ فَيُصَلّي عَلَيْهَا»[2].

وذكرنا أن هذا التبرّك إنّما هو خاص بالنبيّ ﷺ، وليس لأحد بعده مهما بلغ من الصلاح أن يقيس نفسه على النبيّ ﷺ.

وقد ذكر الإمام الشاطبي أنَّه ثبت في الصحاح عن الصحابة رضي الله عنهم أنَّهم كانوا يتبرَّكون بأشياء من رسول الله ﷺ. ففي البخاري عن أبي جُحيفة رضي الله عنه قال: «خَرَج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة[3]، فأُتي بوَضوء[4] فتوضَّأ، فجعل الناسُ يأخذون من فضل وَضوئه[5]

---

(١) النّطع: البساط من الجلد.

(٢) أخرجه أحمد برقم ١٣٨٥٦ وقال شعيب: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحر، سمّيت بذلك، لأنهم يهجرون السير عندها.

(٤) الوضوء ـ بفتح الواو ـ: الماء الذي يتوضأ به.

(٥) فضل وضوئه: ما فضل من الماء الذي توضأ منه.

فيتمسَّحون به[1]. . .» الحديث[2]، وفيه «كان إذا توضَّأ يقتتلون على وَضوئه»[3]. وعن المِسْوَر ﷺ في حديث الحديبية «وما انتخم النَّبيُّ ﷺ نخامة إلَّا وقعت في كفِّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلدَه»[4]. ثم قال: فالظاهر في مثل هذا النّوع أن يكون مشروعاً في حقِّ مَن ثبتت ولايته واتِّباعه لسنَّة رسول الله ﷺ، وأن يُتبرَّك بفضل وَضوئه، ويُتدلَّك بنخامته، ويُستشفى بآثاره كلِّها، ويُرجى نحو مِمَّا كان في آثار المتبوع الأصل ﷺ. ثم ذكر أنَّ هذا الاحتمال لقياس غيره ﷺ عليه في التبرُّك به عارضه أصلٌ مقطوع به، فقال: إلا أنَّه عارضنا في ذلك أصل مقطوع به في متنه، مشكل في تنزيله، وهو أنَّ الصحابة ﷺ بعد موته عليه السلام لم يقع من أحد منهم شيء من ذلك بالنسبة إلى مَن خَلفَه؛ إذ لَم يترك النَّبيُّ ﷺ بعده في أمَّته أفضلَ من أبي بكر الصديق، فهو كان خليفتَه، ولَم يُفعل به شيء من ذلك، ولا عمر ﷺ، وهو كان أفضل الأمَّة بعده، ثم كذلك عثمان، ثم علي، ثم سائر الصحابة الذين لا أحد

---

(١) فيتمسحون به: أي يمسح كل منهم بما أخذه من ماء الوضوء وجهه ويديه تبركاً.

(٢) أخرجه البخاري برقم ١٨٥.

(٣) أخرجه البخاري برقم ١٨٦.

(٤) أخرجه البخاري برقم ٧٠.

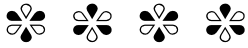
أفضل منهم في الأمَّة، ثم لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أنَّ متبرِّكاً تبرَّك به على أحد تلك الوجوه أو نحوها، بل اقتصروا فيهم على الاقتداء بالأفعال والأقوال والسّير التي اتبعوا فيها النَّبيَّ ﷺ، فهذا إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[1].

ونخلص بعد نقل كلام الإمام الشاطبي رحمه الله إلى القول بأنه: لا يجوز التبرك بآثار أحد حاشا رسول الله ﷺ. فإذا ثبتت نسبة أثرٍ ما من شعر أو نحوه لرسول الله ﷺ جاز التبرّك به، إلا أنّ من العلماء من يشكّك ببقاء شيء من آثاره ﷺ إلى يومنا هذا.

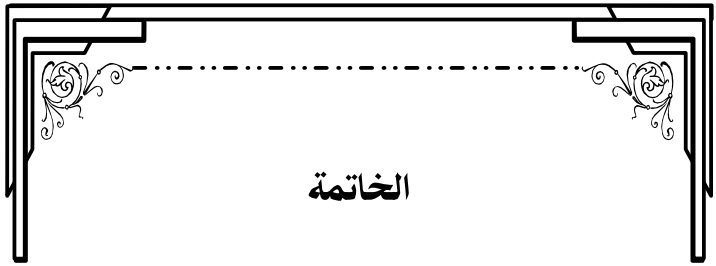
قال الشيخ الألباني رحمه الله: ولا بدَّ من الإشارة إلى أننا نؤمن بجواز التبرك بآثاره ﷺ ولا ننكره، خلافاً لما يُوهمه صنيع خصومنا، ولكن لهذا التبرّك شروطاً. منها: الإيمان الشرعي المقبول عند الله، فمن لم يكن مسلماً صادق الإسلام فلن يحقّق الله له أي خير بتبرّكه هذا. كما يشترط للراغب في التبرّك أن يكون حاصلاً على أثر من آثاره ﷺ ويستعمله، ونحن نعلم أنَّ آثاره من ثياب أو شعر أو فضلات قد فُقدت وليس بإمكان أحد إثبات وجود شيء منها على وجه القطع واليقين،

(١) الاعتصام (٧ ـ ٢/٩).

وإذا كان الأمر كذلك فإن التبرّك بهذه الآثار يصبح أمراً غير ذي موضوع في زماننا هذا ويكون أمراً نظرياً محضاً فلا نبغي إطالة القول فيه[1].



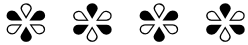
(١) التوسل (١/١٤٥).



الخاتمة

وفي الحديث فوائد كثيرة غير ما ذكرت، إلا أني آثرت في هذه السلسلة الاختصار وعدم الإطالة حتى لا يملّ الناس من تناول الرسالة والإفادة منها.

وفي الختام نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أتباع النبيّ الأمّي الصادقين، وأن يمنّ علينا بسعادة الدنيا والآخرة ببركة اتّباعه والاقتداء بهديه ﷺ.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	٥
متن الحديث	٧
شرح الحديث	٨
فوائد الحديث	٢٣
الفائدة الأولى: ترابط الأنبياء فيما بينهم	٢٣
الفائدة الثانية: عظم بركة النبيّ ﷺ	٢٩
الفائدة الثالثة: التبرك بآثار الرسول ﷺ	٣٨
الخاتمة	٤٦